الفصل الثانى

أصل الأمريكيين الإنجليز ، وأهميته لأحوالهم فى المستقبل

الإلمام بنشأة الأمم وأصلها يعاون على فهم أحوالها الاجتماعية وفهم قوانينها – أمريكا البلد الوحيد الذى استطعنا أن نشاهد فيه بوضوح نقطة البداية التى بدأ منها شعب عظيم – وجوه الشبه بين المهاجرين إلى أمريكا البريطانية – ووجوه الاختلاف بينهم – ملاحظة تصدق على جميع الأوربيين الذين استقروا على شواطىء الدنيا الجديدة – استعمار فرجينيا – استعمار نيو إنجلند – السمات الأصلية لسكان نيو إنجلند الأول – وصولهم – قوانينهم الأولى – عقدهم الاجتماعى – قانون عقوبات مستعار من الشريعة الموسوية – حماستهم الدينية – روحهم الجمهورية – الاتحاد الوثيق بين روح الدين وروح الحرية .

يأتى الإنسان إلى الدنيا ويقضى السنوات الأولى من حياته دون أن يلحظه أحد ، يقضى هذه السنوات بين ملذات الطفولة وضروب نشاطها ، وبعد أن ينمو وينضج ، يستقبله العالم ، فيتصل ببنى جنسه ، وعندئذ يصبح موضعاً للدرس والبحث لأول مرة ، ويخيل للناس أنهم يرون الرذائل والفضائل المعهودة فى السن الناضجة قد أخذت تتكون فيه .

فهذه ، إن لم أكن مخطئاً ، غلطة كبرى . فيجب أن نبدأ قبل ذلك بكثير ، فنراقب الوليد وهو لايزال فى أحضان أمه ، ونشاهد الصور الأولى التى تعكسها أحداث الدنيا الخارجية على مرآة عقله التى لم تصقل بعد ، ونفكر فى المثل الأولى التى تقع فى خبرته ، ونستمع الألفاظ التى توقظ فيه قوى التفكير النائمة . وأخيراً يجب أن نشهد بواكير جهوده التى ينبغى أن يبذلها فى كفاحه . إن ذلك كله لابد منه ، إن أردنا أن نفهم منشأ الأمور التى يتعصب لها وينحاز ، ونعرف مصدر عاداته وشهواته التى ستوجهه فى حياته . فالرجل بأكمله يمكن أن يرى وهو لم يزل فى المهد صبياً .

ويمثل نمو الأمم شيئاً يشبهه ، فكلها تحمل آثاراً وسمات من أصل نشأتها . فالأحوال التى صاحبت ميلادها ، وعاونت على تطورها وترقيها تؤثر فى اتجاه حياتها كله .

فلو أمكننا أن نرجع إلى العناصر الأولى التى تكونت منها الأمم ، ودرسنا أقدم ما فى تاريخها من آثار ، لاهتدينا لاشك إلى السبب الأول لما نراه فيها من ضروب التعصب والعادات والأهواء المسيطرة عليها ، ولوصلنا فى الجملة إلى أسباب كل ما يمكن أن نسميه بالأخلاق القومية . وسنجد هنا تفسيراً لبعض تلك العادات التى تبدو لنا الآن مخالفة للآداب العامة الغالبة ، وشرحها لتلك القوانين التى تتعارض فى ظاهرها مع المبادىء

المقررة، والآراء المتضاربة التى قد نصادفها فى المجتمع أحياناً هنا وهناك . فما أشبهها بقطع السلاسل المكسورة التى نراها مدلاة أحياناً من قباب مبنى عتيق ولا تحمل شيئاً ما . وقد يفسر لنا هذا مصائر بعض الشعوب التى تبدو وكأن قوة مجهولة تدفعها نحو غايات لا تدرى هى نفسها عنها شيئاً . ولكن الحقائق التى تقتضيها هذه الدراسة مازالت تعوزنا إلى اليوم . فروح التحليل لا تتجلى فى الأمم إلا عند اكتمال نضجها ، حتى إذا ما انتهى بها الأمر إلى التفكير فى أمر نشأتها وأصلها ، كان الزمن قد ألقى عليها غشاء كثيفاً من الغموض ، أو احاطتها الكبرياء والجهل بأساطير تخفى وراءها الحقيقة .

فأمريكا هى البلد الوحيد الذى يتيسر لنا فيه أن نشاهد المجتمع ينمو نمواً هادئاً طبيعياً ، ونميز فى وضوح أثر النشأة والأصل فى مقدرات الولايات ومستقبلها .

ففى الوقت الذى نزلت فيه شعوب أوربية شواطىء الدنيا الجديدة ، كانت خصائص هذه الشعوب القومية قد نضجت واكتملت ، فلكل شعب فيها ملامحه وسماته الخاصة به ، ولما كانت تلك الشعوب قد بلغت من قبل مرحلة الحضارة التى يتجه فيها الناس إلى دراسة أنفسهم ، فقد زودتنا بصورة أمينة عن آرائهم وآدابهم وقوانينهم حتى إنّا لنكاد نعرف أهل القرن السادس عشر مثلما نعرف معاصرينا الذين بين ظهرانينا . فلا غرو أن كانت أمريكا تكشف لنا فى رائعة النهار عن تلك الظواهر التى أخفاها عنا جهل العصور الأولى ، أو أخفتها وحشيتها . والظاهر أن أهل عصرنا يستطيعون أن يروا فى الأحداث الإنسانية أبعد مما رآه أسلافهم فيها . فهم قريبون كل القرب من العصر الذى تأسست فيه المستعمرات الأمريكية ، وفى الوقت نفسه ، بعيدون كل البعد عن ذلك العصر ، مما ييسر لهم أن يكون حكمهم على ما أنتجته تلك الدويلات حكماً سديداً ، فقد زودتنا العناية بمصباح لم يكن فى متناول أجدادنا ، وخولت لنا أن نتعرف فى تاريخ الأمم ومقدراتهم أسباباً أولى كانت قد أخفتها عنهم ظلمات الماضى .

فلو أنا درسنا بشىء من العناية والتعمق أحوال أمريكا الاجتماعية والسياسية ، بعد دراستنا تاريخها ، لاقتنعنا تمام الاقتناع بأنه لا يوجد رأى مدون ، ولا عادة من العادات ، ولا قانون من القوانين ، بل وأكاد أقول ولا حادث من الأحداث ، إلا ويفسره أصل الأمة . وسيجد قراء هذا الكتاب فى الفصل الحاضر بذور كل ما سيلى ، ومفتاحاً للكتاب كله .

إن المهاجرين الذين وفدوا على أمريكا فى فترات مختلفة كى يحتلوا الأراضى التى يشغلها الاتحاد الأمريكى الآن ، كانوا مختلفين بعضهم عن بعض من عدة وجوه ، فلم يكن غرضهم واحداً ، ولم يحكموا أنفسهم على أساس مبادىء واحدة .

ومع ذلك فقد كانوا يشتركون جميعاً فى عدة نواح معينة ، فقد ألقت بهم الظروف فى مواقف متشابهة . ولعل رابطة اللغة كانت أقوى الروابط التى يمكن أن تجمع بين

بنى الإنسان ، وأدومها كلها . لقد كان المهاجرون الأول يتكلمون لغة واحدة ، كما كانوا من أبناء شعب واحد . وإذ ولدوا فى بلاد ظلت تحركها الخلافات الطائفية عدة قرون ، واضطر كل فريق أن يضع نفسه بدوره فى حماية القوانين ، فقد اكتملت تربيتهم السياسية فى تلك المدرسة الخشنة ، فكانوا أدرى بفكرة الحق ، وبمبادىء الحرية الصحيحة ، من غالبية معاصريهم الأوربيين . ففى عصر الهجرات الأولى كان نظام « القومونات » (البلديات) أساس المؤسسات النافعة ، قد تأصل ورسخ فى عادات الإنجليز ، ومعه دخل مذهب سيادة الشعب فى صميم ملكية أسرة تيودور .

وكانت المنازعات الدينية التى استثارت العالم المسيحى فى ذلك الوقت قد استشرت ، فاندفعت إنجلترا وألقت بنفسها وسط النظام الجديد ، بشدة وعنف ، وصار أهلها ، وكانوا دائماً ذوى أخلاق رزينة متعقلة ، كثيرى الجدل ، شديدى الصرامة ، وازدادت المعلومات العامة من جراء الخصومات العقلية ، ونال العقل مزيداً من الرعاية والعمق ، فعلى حين كانت الديانة موضوع الجدل والنقاش ، صارت آداب الناس وأخلاقهم أنقى وأصفى . فكل هذه السمات العقلية ، يتيسر استكشافها - إلى حد ما - فى ملامح هؤلاء الإنجليز الذين جاءوا ينشدون ديارا جديدة على شواطىء المحيط الأطلسى المقابلة لشواطئهم .

وزيادة على ذلك فثم ملاحظة أخرى ستتاح لنا الفرصة للعودة إليها ، وهى ملاحظة لاتصدق على الإنجليز وحدهم ، بل تصدق كذلك على الفرنسيين والإسبانيين وسائر الأوربيين الذين نجحوا فى تثبيت أقدامهم فى أراضى الدنيا الجديدة . فقد توافرت فى كل هؤلاء الأوربيين العناصر اللازمة للديمقراطية الكاملة ، وإن لم تتجل فيهم مظاهرها كاملة . وقد أدى إلى هذه النتيجة سببان اثنان . فلا بأس من أن نقول بأن المهاجرين عندما غادروا بلادهم الأصلية لم يكن لديهم أية فكرة عن تفوق أحد منهم على الآخر . فالسعداء الأقوياء لايبرحون بلادهم ، وليس ثمة ضمان للمساواة بين الناس أوكد من الفقر والبؤس . ومع ذلك فقد حدث مرات عدة أن اضطر نفر من ذوى المراتب والألقاب إلى الهجرة إلى أمريكا بسبب ما شجر فى بلادهم من الخلافات السياسية والدينية ، فوضعت القوانين نظاماً متدرجاً للمراتب ، ولكن الناس لم يلبثوا أن رأوا أن تربة أمريكا تتعارض مع أية أرستقراطية إقليمية ، وأدركوا أنهم كى يطهروا هذه الأرض لامناص لصاحبها من أن يبذل جهوداً موصولة من أجل مصلحته الشخصية ، وبعد أن تم إعداد الأرض ، تبين أن غلتها لاتكفى لإدرار الثروة على الفلاح ، وعلى مالك الأرض كليهما . وعندئذ قسمت الأراضى بطبيعة الحال أقساماً صغيرة يقوم مالك كل قسم منها بتعهد أرضه وزرعها بنفسه . فالأرض أساس كل أرستقراطية تستمسك بالأرض التى تغذيها ، فليس بالامتيازات وحدها ، ولا بالأصل والنسب وحدهما ، تقوم الأرستقراطية . ولكنها تقوم بملكية الأرض ، يتوارثها الأبناء جيلاً بعد جيل . قد يكون فى الأمة ثروات عراض وبؤس شديد ، ولكن إن لم تكن هذه الثروات قائمة على الأراضى فلا يمكن أن تكون ثمة أرستقراطية ، بل مجرد طبقة من الأغنياء ، وأخرى من الفقراء .

كان بين جميع المستعمرات الإنجليزية إذن وجوه شبه بارزة منذ نشأتها . والظاهر أنه كان مقدراً على كل منها من البداية أن تشهد نمو الحرية فى الطبقات الوسطى والدنيا التى لم يزودنا تاريخ العالم بمثل كامل منها ، وليس نمو تلك الحرية الأرستقراطية التى نشأت فى أوطانها الأصلية .

ومع ذلك فلا يسعنا إلا أن نلاحظ فى هذه الوحدة العامة وجوه اختلاف عدة بارزة لا تقتضينا الضرورة أن نبينها . فثم فرعان أساسيان فى الأسرة الأمريكية الإنجليزية الكبرى يمكن تمييزهما ، فهما نشآ ولم يندمجا إلى الآن بعضهما فى بعض تمام الاندماج . فأحد هذين الفرعين فى الجنوب والآخر فى الشمال .

نزلت أول جالية إنجليزية فى فرجينيا عندما وصل إليها المهاجرون سنة ١٦٠٧م . وكانت فكرة أن مناجم الذهب والفضة تعد مصادر الثروة القومية ، منتشرة أيما انتشار فى أوربا فى ذلك الوقت . وهى فكرة لا شك خاطئة ، أدت إلى افتقار الدول الأوربية التى أخذت بها ، كما أدت إلى ضياع أرواح كثيرة فى أمريكا أربى عددها على من راحوا ضحايا الحروب والقوانين الجائرة معاً . فالناس الذين أرسلوا إلى فرجينيا كانوا أولئك النفر الذين يسعون وراء الذهب ، وكانوا قوما مغامرين لا أخلاق لهم ، ولا موارد خاصة يعتمدون عليها ، وكانت نفوسهم القلقة المتمردة قد أضرت بالمستعمرة الناشئة وجعلت تقدمها أمراً غير أكيد . ولكن وصل إليها فيما بعد ، جماعات من الصناع والزراع . ومع أنهم كانوا أحسن أخلاقاً وأكثر انتظاما ، فإنهم لا يرتفعون عن مستوى الطبقات الدنيا فى إنجلترا فى شىء . فلم تكد المستعمرة تنشأ حتى جىء إليها بالرقيق ، فكان هذا الأمر الرئيسى الذى سيكون له أكبر الأثر فى أخلاق أهالى الجنوب وقوانينهم ، بل وفى مستقبلهم كله . فالرق ، كما سأبين بعد ، يسىء إلى سمعة العمل ، ويدخل الكسل فى المجتمع ، ومع الكسل يدخل الجهل والصلف وحب الترف ، والبؤس . ذلك إلى إنه يضعف قوى العقل ويشل نشاط الإنسان . فإن نحن أضفنا تأثير الرق إلى الخلق الإنجليزى عرفنا أسباب ما فى الولايات المتحدة الجنوبية من عادات أخلاقية وأحوال اجتماعية .

فعلى هذا الأساس الإنجليزى نفسه نشأت فى الشمال صفات أخرى مخالفة لما فى الجنوب كل المخالفة ، وهنا يصح لنا أن ندخل فى التفصيلات .

ففى المستعمرات الإنجليزية التى تقع فى الشمال ، والتى تعرف إجمالاً باسم نيو إنجلند ، اجتمعت لأول مرة الفكرتان أو الثلاث الرئيسية التى أصبحت أساس نظرية الولايات المتحدة الاجتماعية ، ثم انتشرت مبادىء نيو إنجلند هذه أول ما انتشرت بين الولايات المجاورة لها ، ومنها انتقلت إلى الولايات البعيدة عنها واحدة بعد أخرى . وأخيراً توغلت فى الاتحاد الأمريكى كله . وإن نفوذها لينتشر فيما وراء الحدود حتى يعم العالم الأمريكى كله . لقد كانت حضارة نيو إنجلند أشبه بمنارة أقيمت على ربوة . فبعد أن أشاعت الدفء فيما حولها مباشرة جعلت تصبغ الأفق البعيد بوجهها .

كان تأسيس نيو إنجلند مشهداً جديداً ، وكانت جميع الظروف التى أحاطت بها غريبة ، وأصيلة غير مسبوقة . فكان أول من قطن المستعمرات كلها تقريباً ، رجال من غير تعليم ، ومن غير موارد خاصة ، دفعهم فقرهم وسوء سلوكهم إلى النزوح عن البلاد التى نشأوا فيها ، أو مضاربون جشعون ، ومغامرون يغلب عليهم حب المكاسب ، وكان بين هؤلاء المستعمرين من لا يفخرون حتى بأصل مثل هذا الأصل . « فسانتو دومنجو » أسسها القراصنة ، ولا تزال محاكم الجنايات فى إنجلترا تزود أستراليا إلى اليوم بالسكان .

كان كل المهاجرين الذين استوطنوا شواطىء نيو إنجلند من الطبقات المستقلة اقتصادياً فى بلادهم . فاجتماعهم فى أرض أمريكا كان ظاهرة غريبة لمجتمع ليس فيه أعيان ولا سوقة ، أو بعبارة أخرى ، ليس فيهم غنى ولا فقير . وكان من هؤلاء القوم (بالنسبة لعددهم) من المثقفين والمعلمين عدد أكبر مما نجده فى أية أمة أوربية فى عصرنا . وربما كانوا كلهم ، من غير أى استثناء ، قد حصلوا على قسط طيب من التعليم . وكان الكثيرون منهم معروفين فى أوربا بمواهبهم العظيمة وسعة معارفهم . أما المستعمرات الأخرى فقد أنشأها مغامرون لا أسر معروفة لهم ، على حين جاء المهاجرون إلى نيو إنجلند ومعهم الكثير من عناصر النظام والأخلاق ، ونزلوا مع أزواجهم وأولادهم على الشاطىء المقفر . أما الذى ميزهم عن سواهم بصفة خاصة فالهدف الذى من أجله هاجروا . فليست الحاجة هى التى ألجأتهم إلى النزوح عن أوطانهم ، فقد كانت مراكزهم الاجتماعية التى خلفوها وراءهم مما يندمون عليه ويتحسرون . وكانت وسائل العيش موفورة لهم ، فهم لم يتركوا ماكانوا ينعمون به من وسائل الراحة فى أوطانهم واجتازوا المحيط إلى الدنيا الجديدة ، كى يحسنوا مراكزهم أو ينموا ثرواتهم ، بل كان هدفهم إشباع رغبة عقلية محضة ، فعندما واجهوا آلام المنفى التى لا مناص لهم منها ، كانوا يهدفون إلى تحقيق النصر لفكرة آمنوا بها .

كان هؤلاء المهاجرون ، أو « الحجاج » كما يسمون أنفسهم بحق ، من تلك الطائفة الإنجليزية التى أكسبتها كرامة مبادئها اسم المتطهرين (البيوريتانز) وليست التطهرية مجرد مذهب دينى فحسب ، فقد كانت تتفق فى كثير من الوجوه مع أكثر النظريات الجمهورية والديمقراطية المطلقة . فهذه النزعة هى التى استثارت أشد خصومهم خطراً عليهم ، فلما اضطهدتهم حكومات بلادهم الأصلية ، ونفروا كل النفور من عادات تأباها عليهم مبادئهم الصارمة الخاصة انطلق المتطهرون يبحثون فى العالم كله عن مكان خشن غير مأهول يستطيعون أن يحيوا فيه حياة تتفق مع آرائهم ، ويعبدوا ربهم بحرية تامة .

إن بضع عبارات نقتبسها من أقوال بعض المؤرخين قد تلقى الكثير من الضوء على روح هؤلاء المغامرين الأتقياء ، وتعرفك بهم أكثر من كل ما نستطيع أن نقوله نحن عنهم . . إن ناثانيل مورتون (مؤرخ السنوات الأولى من استيطانهم نيو إنجلند) يستهل كلامه بالعبارة الآتية :

« أيها القارىء الكريم ! إنه لواجب مقدس علينا نحن الذين نال آباؤهم كثيراً من

نعم الله التى لا تنسى ومن رحمته بهم ، بإلهامه إياهم إنشاء هذه المزرعة ، فى نيو إنجلند - أن نقوم بتخليد ذكراها . فما شاهدناه، وما قصه علينا آباؤنا ، يجب أن ننقله إلى أبنائنا ونعرفهم به حتى نبين للأجيال القادمة أن الواجب عليهم أن يحمدوا الله على ما آتاهم ، وحتى يذكر أبناء عبده إبراهام وأبناء صفيه يعقوب أياديه البيضاء عليهم . فهم يجب أن يعلموا كيف أمر الله بنقل هذه الكروم إلى الصحراء ، وكيف غرسها وطرد الوثنيين منها ، وكيف أعد لها مغرساً ، وأرسل جذورها فى أعماق التربة ، ثم تركها تمتد وتنتشر فى أطراف الأرض .

فهذه الحقائق يجب أن تعرف حتى ينال الله من الحمد ما هو أهل له ، وحتى تصل بضع أشعة من أمجاده إلى أسماء أولئك القديسين المباركين الذين كانوا الوسطاء الأول فى هذا المشروع السعيد » .

يستحيل علينا أن نقرأ هذا الاستهلال من غير أن نشعر قسراً برهبة دينية ، وبجلال تفوح منه رائحة الإنجيل العتيق . لقد أضفى إيمان المؤلف بما يقول ، الحياة والقوة على أسلوبه . فهم لم يكونوا فى نظر المؤلف ، ولا فى نظرنا نحن ، مجرد قوم مغامرين هبُّوا يسعون وراء ما قدر لهم ، فيما وراء البحار . ولكنهم كانوا بذور أمة عظيمة حملتها العناية إلى الأرض الموعودة .

ويصف الكاتب رحيل المهاجرين الأول بهذا الأسلوب فيقول :

« وهكذا غادروا مدينة « ليدن » الطيبة البهجة ، التى كانوا اتخذوها لهم مقراً موقوتاً منذ أحد عشر عاماً مضت . وكانوا عند رحيلهم مطمئنى النفوس ، لأنهم كانوا يعلمون أنهم فى هذه الدنيا غرباء ونزلاء ، وهى دنيا لم يحفلوا كثيراً بأمورها . بل كانوا يولون وجوههم شطر السماء ، أعز مكان عليهم ، حيث أعد الله لهم فيها مدينة خاصة .

وعندما وصلوا « دلفس هافن » وجدوا السفينة التى ستقلهم فى انتظارهم وكان كل شىء معداً لهم . أما أصدقاؤهم الذين لم يستطيعوا الرحيل معهم فقد رحلوا بعدهم . وجاء كثيرون من أمستردام ليودعوهم . فقضوا جميعاً ليلة لم ينم أكثرهم فيها إلا غراراً ، فقضوها فى تسلية بريئة بين مظاهر الصداقة ، وفى أحاديث دينية وغيرها من التعبيرات الحقيقية عن المحبة المسيحية الصادقة . وفى الصباح صعدوا إلى السفينة ومعهم أصدقاؤهم . فكان الوداع مؤثراً حقاً ومؤلماً ، كنت تسمع تنهدات ، وآهات عميقة . وترى الدموع تنساب من عيونهم وتجرى على وجناتهم ، وتستمع إلى الخطب الموجزة البليغة التى تصل إلى صميم قلوبهم ، وتشهد طول عناقهم وصلواتهم الحارة ، وكان كثيرون من الهولنديين واقفين على الرصيف يشاهدونهم فتأثروا أيما تأثر ، ولم يستطيعوا أن يمسكوا عليهم دموعهم - ولما أذن المؤذن بالرحيل ، ركع راعيهم الموقر ، وركعوا جميعاً معه مغرورق العيون ، فأسلمهم

الراعى بصلوات حارة إلى رحمة الرب ثم ودعوا بعضهم بعضا بعيون دامعة ، فكان لأكثرهم آخر وداع » .

كان عدد المهاجرين حوالى مائة وخمسين مهاجراً بمن فيهم من نساء وأطفال ، وكانوا يهدفون إلى إنشاء مستعمرة لهم على ضفاف نهر هدسن . وبعد أن ظل المحيط الأطلسى يتلاعب بهم فترة من الزمن ، اضطروا أن يرسوا بسفينتهم على شواطىء نيو إنجلند المقفرة عند النقطة التى تقع فيها الآن مدينة بلايموث ، ولا تزال الصخرة التى نزلوا عندها قائمة إلى اليوم .

ويستأنف المؤرخ الحديث فيقول « أرجو أن يتلبث القارىء معى برهة نتدبر فيها جدياً حالة هذا الشعب الفقير الحاضرة ، ونحمد الله الكريم على إنقاذهم . فبعد أن اجتازوا المحيط المترامى الأطراف ووصلوا إلى آخر المطاف ، وجدوا فى انتظارهم بحراً آخر من المتاعب ، فلم يكن ثم أصدقاء يرحبون بهم ، ولا فنادق تستقبلهم وتسرى عنهم أو تجدد نشاطهم ، ولا بيوتاً ولا مدناً يلوذون بها ويسألون المعونة من أهلها . وكان الفصل شتاء ، وكل من يعرفون شتاء تلك البلاد يعلمون أنه شتاء قاس وعنيف يتعرض لعواصف جارفة تتلف الشواطىء . فمن الخطر فى هذا الفصل أن يسافر المسافرون إلى الأمكنة المعروفة لهم ، فما بالك بالبحث عن سواحل مجهولة ؟ وزيادة على ذلك فماذا عساهم أن يروا سوى صحراء مقفرة رهيبة ، مليئة بالوحوش الكواسر ، وبأناس متوحشين . أما عدد هؤلاء المتوحشين فأمر يجهلونه كل الجهل . فأنى وجهوا أنظارهم - اللهم إلا إذا وجهوها صعدا نحو السماء - لم يجدوا إلا القليل من الراحة ومن العزاء ، فبعد انقضاء الصيف ، ظهرت جميع الأشياء بمظهر أثر فيه الجو كل تأثير ، وبدت لهم البلاد كلها ، الحافلة بالغابات والأحراج ، فى صورة موحشة قاسية ، فإن هم تلفتوا وراءهم لم يشاهدوا غير المحيط الأعظم الذى اجتازوه والذى أضحى الآن يفصلهم عن سائر أنحاء المعمورة . فكى يجدوا قليلاً من الأمل وشيئاً من الاطمئنان ، كان لابد لهم من أن يوجهوا أنظارهم شطر السماء » .

ولا يتصورنّ أحد أن تقوى هؤلاء « المتطهرين » كانت مجرد تأمل ونظر ، أو أنها لم تحسب لمجرى الأمور الدنيوية أى حساب . « فالتطهر » ، كما أشرنا من قبل ، يكاد يكون نظرية سياسية بقدر ما هو مذهب دينى ، فلم يكد المهاجرون يطأون بأقدامهم ذلك الساحل القفر الذى وصفه ناثانيل مورثون هذا ، حتى كان همهم الأول أن ينظموا أنفسهم على شكل مجتمع ، فاشتركوا جميعاً فى إصدار القرار الآتى :

« باسم الله ، آمين . نحن المذكورة أسماؤهم بعد ، رعايا مليكنا المرهوب الجانب ، المخلصين له ، الملك جيمس ... إلخ ...

إنا بعد أن قمنا لمجد الله ولنشر الدين المسيحى ، ولشرف مليكنا ووطننا - قمنا برحلة

لإقامة أول مستعمرة فى الأجزاء الشمالية من فرجينيا ، نعلن ، نحن الحاضرين ، فى وقار أمام الله ، وأمام بعضنا بعضا ، أن نتعهد بأن نؤلف من أنفسنا هيئة سياسية ، مدنية ، تهدف إلى تنظيم شئوننا وصيانة أنفسنا ، ولتحقيق الأغراض السالف ذكرها - نتعهد جميعاً بفضل ذلك الميثاق أن نقوم الحين بعد الحين ، وبحسب ماتقتضيه الحاجة ، بوضع القوانين والقرارات واللوائح والدساتير العادلة التى تسوى بين الناس ، والتى تراعى خير المستعمرة العام ، وأن نقيم بحسب الحاجة حكاماً وقضاة نتعهد لهم بالإذعان والطاعة . » إلخ .

حدث هذا فى سنة ١٦٢٠ . ومنذ ذلك الوقت ظلت الهجرة تتوالى لاينقطع تيارها . فالأهواء الدينية والسياسية التى مزقت أوصال الإمبراطورية البريطانية طوال حكم الملك تشارلس الأول كله ظلت تدفع جماهير جدداً من أهل الطائفة نفسها إلى شواطىء أمريكا فى كل سنة من السنين . وقد ظلت الطبقات الوسطى - وهى الطبقات التى خرج منها معظم المهاجرين - معقل « المتطهرين » فى إنجلترا . فلا غرو أن ازداد عدد سكان نيو إنجلند بسرعة عظيمة . وبينما كان نظام الطبقات يتحكم وحده فى تصنيف سكان الوطن الإنجليزى ، كانت المستعمرة الأمريكية تزداد اقتراباً من ذلك المشهد الرائع الجديد - مشهد شعب متجانس فى كل أجزائه . إن ديمقراطية أكمل مما تجرأت العصور القديمة أن تحلم به ، قد نشأت كاملة العدد والعدة من بين مجتمع إقطاعى قديم .

هذا ولم تكن الحكومة الإنجليزية بآسفة على هجرة عدد كبير من أهل البلاد هؤلاء ، فقد خلصتها هجراتهم هذه من عناصر شقاق ونزاع ، ومصادر ثورات جديدة ، بل على النقيض من أسفها ، عملت كل ما يمكن أن تعمله لتشجيعها . ويبدو أنها لم تكن تحفل بشأن ما عسى أن يكون مصير أولئك الذين راحوا يسعون وراء ملجأ فى أمريكا يلوذون به من قسوة قوانينها . وبدت الأحوال كأن نيو إنجلند كانت إقليماً انعقدت أحلام الناس وأخيلتهم عليه ، ومجالاً لتجارب المجددين الكثيرة التى لاتقف عند حد .

وكانت المستعمرات الإنجليزية - وهذا سبب من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى ازدهارها ورخائها - تستمتع دائما بحرية داخلية ، وباستقلال سياسى أكثر مما كانت تستمتع به عادة مستعمرات الأمم الأخرى . ولم يكن مبدأ الحرية هذا يطبق فى أى مكان آخر على نحو أوسع مما طبق فى ولايات نيو إنجلند .

كان من المسلم به فى ذلك الوقت اعتبار أقاليم الدنيا الجديدة من حق الأمة الأوربية التى يثبت أنها أول من استكشفها . وبهذا صار شاطىء أمريكا الشمالية كله من أملاك بريطانيا فى أواخر القرن السادس عشر ، أو كاد . وكانت الوسائل التى تذرعت بها الحكومة البريطانية لإسكان هذه الأقاليم الجديدة شتى ومنوعة . فأحياناً كان الملك يعين لها حاكماً يختاره بنفسه ليتولى باسم التاج حكم جزء من تلك الدنيا الجديدة ، وبأوامر تصدر منه مباشرة . فهذا هو النظام الاستعمارى نفسه الذى جرت عليه ممالك أوربية أخرى -

وأحياناً كان صاحب التاج يهب أراضى معينة إلى فرد أو شركة ، وعندئذ تكون السلطات المدنية والسياسية كلتاهما فى يد شخص واحد ، أو جملة أشخاص ، يعمل (أو يعملون) بإشرافه ورقابته - وكان لهذا الشخص ، أو لأولئك النفر ، الحق فى بيع الأراضى وحكم الأهالى . وأخيراً كان ثمة نظام ثالث ، وذلك أن يخول عدد من المهاجرين أن يكوِّنوا من أنفسهم هيئة سياسية بحماية الدولة الأم ، وأن يقوموا هم بحكم أنفسهم حكماً لا يتنافى مع قوانينها . فطريقة الاستعمار هذه تتلاءم كل الملاءمة مع الحرية ، هى الطريقة التى اتبعت فى نيو إنجلند وحدها .

ففى سنة ١٦٢٨ منح الملك تشارلس الأول (مرسوماً) من هذا القبيل إلى مهاجرين غادروا وطنهم ليؤسسوا مستعمرة مساتشوستس ، ومع ذلك فلم يكن مثل هذا المرسوم يمنح لأية مستعمرة من مستعمرات نيو إنجلند ، إلا بعد أن يصبح لها كيان خاص ويمضى على تأسيسها مدة غير قصيرة . فبلايموث ، وبرفيدنس ، ونيوهافن ، وكنيتكت ، وورود آيلند تأسست كلها بدون أى معاونة من الوطن الأصلى ، بل إنها تأسست من غير علمه تقريباً . ولم يستمد المستعمرون الجدد سلطتهم من رأس الإمبراطورية البريطانية ، وإن لم ينكروا ما لها من سيادة عليهم ، بل أقاموا من أنفسهم مجتمعاً سياسياً لم يعترف به رسمياً إلا بعد ثلاثين أو أربعين عاماً عندما أصدر الملك تشارلس الثانى مرسوماً ملكياً يجعل وجودها أمراً شرعياً.

ومن ثم كان من الصعب ، ونحن ندرس أقدم وثائق نيو إنجلند ، التاريخية منها والتشريعية ، أن ندرك الصلة التى تربط المهاجرين ببلاد آبائهم . فقد كانوا يمارسون حقوق السيادة باستمرار ، ويعلنون الحرب ويعقدون الصلح ، ويسنون اللوائح البوليسية ، ويحترمون القوانين ، كما لو كان ولاؤهم لله وحده . فليس ثم شىء أعجب ولا أفيد من تشريعات تلك الفترة ، إذ نجد فيها حلاً للمشكلة الاجتماعية الكبرى التى تقدمها الولايات المتحدة الآن للعالم بأسره .

وسنجد بين مجموعات هذه القوانين ، تلك المجموعة التى سنتها ولاية كنيتكت الصغيرة سنة ١٦٥٠ والتى تمثل تلك القوانين خير تمثيل .

بدأ مشرعو ولاية كنيتكت بقوانين العقوبات ، ومن الغريب أنهم استمدوا موضوعاتهم من الكتب المقدسة .

جاء فى مقدمة هذه القوانين « كل من يعبد إلهاً غير الله سيعاقب بالإعدام . ثم تلا ذلك عشر فقرات أو اثنتا عشرة فقرة من هذا النوع أخذت نصاً عن أسفار التثنية ، والخروج ، واللاويين ، وكان التجديف والسحر والزنا وهتك العرض آثاماً يعاقب عليها كلها بالإعدام ، وكل تعدٍّ من الابن على والديه جزاؤه الإعدام كذلك ، وهكذا طبق تشريع لا يصلح إلا لأمة خشنة نصف متحضرة ، على مجتمع مستنير وديع الأخلاق ،

فكانت النتيجة أنه لم يحدث أن تقررت عقوبة الإعدام فى القوانين أكثر مما تقررت هنا ، ونفذت أقل مما نفذت هنا .

وكان أكبر هم واضعى قانون العقوبات هذا ، المحافظة على حسن النظام فى المجتمع ، وعلى سلامة الأخلاق فيه ، وعلى ذلك كانوا يقحمون أنفسهم باستمرار فى ميدان « الضمير » فلا تكاد تجد خطيئة ليست موضوعاً لنقد أولى الأمر أو تعزيرهم . ويدرك القارىء صرامة هذه القوانين فى خطايا هتك العرض والزنا . فكان الزنا بين غير المتزوجين يقمع بكل شدة ، وقد خول للقاضى أن يحكم بواحدة من ثلاث : فإما أن يوقع عليهم غرامة مالية ، أو يحكم عليهم بالجلد ، أو بالزواج . وإن نحن صدقنا سجلات محاكم نيوهافن القديمة ، فالأحكام التى من هذا القبيل كانت غير قليلة ، فثم حكم بتاريخ أول مايو سنة ١٦٦٠ يقضى بالغرامة والتعزير على فتاة اتهمت بالتلفظ بعبارات نابية وسمحت لشخص أن يقبلها . وفى قانون سنة ١٦٥٠ إجراءات وقائية كثيرة ، فكان يقضى بتشديد العقاب على السكارى والكسالى . وحرم على أصحاب المنزل والحانات أن يقدموا لكل زبون أكثر من مقدار معين من الشراب . وحتى الكذبة البلقاء إن ترتب عليها ضرر حكم على الكاذبة بالغرامة أو بالجلد . وفى أخرى كان المشرع ينسى تمام النسيان مبادىء التسامح الدينى العظيمة التى كان يطالب بها هو نفسه فى أوربا ، ويجعل حضور الخدمة الدينية فى الكنائس إجبارياً ، ويعاقب المخالفين بتوقيع الغرامات المالية . بل قد بلغ به الأمر أن يوقع عليهم عقوبات شديدة ، وكثيراً ما كان يقضى بالإعدام على المسيحيين الذين يعبدون الله على نحو يخالف ما يعبده هو عليه . والحق أن غيرة المشرع على التنظيم وتحمسه له كانا يدفعانه إلى الاهتمام بأمور جزئية تافهة لا يليق به أن يعنى بها . ومن ذلك إصدار قانون فى مجموعة القوانين السالفة الذكر يحرم التدخين . وأخيراً يجب ألا يغرب عنا أن هذه القوانين العجيبة أو الظالمة لم تفرض على الناس فرضاً ، بل تقررت بطريق التصويت ممن يعنيهم الأمر ، كما يجب ألا ننسى أن العادات الأخلاقية كانت أشد صرامة من القوانين نفسها . فقد تكونت فى بوسطن عام ١٦٤٦ جمعية تهدف إلى منع الناس من الاستمتاع بعادة إرسال شعورهم طويلة .

ولا شك فى أن مثل هذه الأمور ليست مما يشرف العقل البشرى ، بل هى دليل على قصور فى طبيعتنا الإنسانية التى عجزت عن الاستمساك بما هو حق وعدل ، فهبطت بالعقول إلى الأخذ بأحد أمرين كل منهما متطرف . ومما يتصل بقانون العقوبات هذا أوثق اتصال ، ذلك القانون الذى يحمل سمات بارزة تدل على روح طائفية ضيقة ، وعلى تلك الأهواء الدينية التى استثارتها وأججتها الاضطهادات - والتى مازالت تختمر بين الناس ، - نجد مجموعة من القوانين السياسية متصلة بشكل ما بتلك القوانين لا تزال متقدمة على ما يستمتع به عصرنا من حريات على الرغم من أن هذه القوانين وضعت منذ مائتين من السنين .

إن المبادىء العامة التى تعد أسس الدساتير الحديثة ، والتى لم تكن معروفة تمام المعرفة فى أوربا فى القرن السابع عشر ، ولم تفز كل الفوز حتى فى بريطانيا نفسها ، كانت قوانين نيو إنجلند تعترف بها وتقرها كلها . فتدخل الشعب فى المسائل العامة ، وحرية التصويت على فرض الضرائب ، ومسئولية الموظفين ، والحرية الفردية ، والمحاكمة بواسطة المحلفين ، كلها كانت مقررة فعلاً من غير حاجة إلى جدل أو نقاش .

وقد طبقت هذه المبادىء المثمرة ، ورقيت إلى درجة لم تحاولها أية أمة أخرى فى القارة الأوربية .

فكانت الهيئة الانتخابية فى كنيتكت تتكون منذ البداية من جميع المواطنين . وما فهم هذا بعسير . ففى هذه الجماعة الفتية كانت المساواة بين الناس وفى الثروة تكاد تكون كاملة ، كما كان بها وحدة أعظم فى الرأى . وكان جميع الموظفين التنفيذيين فى هذه الولاية آنئذ ، منتخبين بما فيهم كاهن الولاية نفسه . وإذ كان كل مواطن تزيد سنه على الستة عشر عاماً مجبراً على حمل السلاح فقد كونوا جيشاً قومياً (حرساً وطنياً) له أن يعين ضباطه بنفسه ، ويكون متأهباً دائماً للدفاع عن البلاد .

ففى قوانين كنيتكت وفى ولايات نيو إنجلند كلها نجد بذور استقلال وحدة الحكم المحلى وتطورها التدريجى ، وهى حياة الحرية الأمريكية فى الوقت الحاضر ، والمعين الذى تستمد منه الحياة . بدأت معظم دول أوربا وجودها السياسى فى طبقات المجتمع العليا ثم صار يصل شيئاً فشيئاً ، وبشكل قاصر ، إلى مختلف أعضاء الهيئة العليا الاجتماعية . أما فى أمريكا فكان الأمر على النقيض من ذلك . ويجوز لنا أن نقول أن وحدة الحكم المحلى نظمت فى البلاد قبل المقاطعات ، والمقاطعات قبل الولايات ، والولايات قبل أن يقوم الاتحاد الأمريكى .

تم تكوين وحدة الحكم المحلى على وجه التحديد سنة ١٦٥٠ ، وكان استقلال وحدة الحكم المحلى البذرة التى تركزت حولها المصالح المحلية والعواطف والحقوق والواجبات ، وأتاحت المجال للنشاط فى حياة سياسية حقيقية ، وديمقراطية جمهورية كاملة . كل ذلك وكانت المستعمرات لاتزال تعترف بسيادة الوطن الأم القديم عليها ، وكانت الملكية هى نظام الدولة ، ولكن الجمهورية كانت قد قامت فعلا فى كل مدينة .

وكانت القرية هى التى تعين كل موظفيها على اختلاف أنواعهم وتتولى فرض الضرائب اللازمة بنفسها وتجبيها بنفسها كذلك ، وإذا لم يكن قانون التمثيل النيابى قد عمل به فى نيو إنجلند ، إلا أن شئون الجماعة التى تمس جميع المواطنين كانت تدرس وتناقش فى جمعية عامة تشمل المواطنين وتعقد فى مكان عام .

فعند دراسة القوانين التى سنت وأذيعت فى ذلك العصر المبكر من عصور الجمهوريات الأمريكية ، لايسع المرء إلا أن يدهش من سعة إلمام المشترع بشئون الحكم ،

ومن النظريات التقدمية التى يأخذ بها . فمن الواضح أن فكرته عن واجبات الجماعة نحو أفرادها ، كانت أرقى وأشمل من آراء المشترعين فى أوربا فى ذلك الوقت . فقد ألقيت عليها التزامات كانت تستخف بها الجماعات الأخرى فى كل مكان . ففى ولاية نيو إنجلند كانت حالة الفقير موضع رعاية ، واتخذت إجراءات مشددة لصيانة الطرق ، وعين المساحون اللازمون للعناية بها وصيانتها ، وأعدت سجلات خاصة فى كل بلدة لتدوين نتائج المناقشات العامة ، ولتسجيل المواريث ، والوفيات والزيجات ، وتدريب الكتبة على العناية بهذه السجلات ، وعين الموظفون اللازمون لإدارة الممتلكات التى لم يعد يطالب بها أحد ، كما عين موظفون لتعيين حدود التركات . وكذلك غيرهم كثيرون للمحافظة على النظام العام فى الجماعة . فالقانون يتدخل فى آلاف التفصيلات المنوعة ابتساراً لكثير من الحاجات الاجتماعية وسدها مقدماً ، وهى حاجات مازال الفرنسيون حتى اليوم لايشعرون بها الشعور الكافى .

أما اللوائح المتصلة بشئون التعليم فهى التى أبرزت سمات الحضارة الأمريكية الأصلية خير إبراز ، فقد جاء فى القانون « لما كان الشيطان عدو الإنسان ، يجد أقوى سلاح له فى جهل الناس ، ولما كان من الأهمية بمكان ألا تظل حكومة آبائنا مدفونة معهم فى قبورهم ، ولما كانت تربية الأطفال من أول واجبات الدولة - فإنا بعناية الله ... » ثم يلى ذلك فقرات خاصة بضرورة إنشاء المدارس فى كل وحدة للحكم المحلى ، وإلزام الأهالى بمعاونتها ، وإلا فرضت عليهم غرامات مالية باهظة .. وكذلك تأسست بالطريقة عينها مدارس أعلى درجة فى المراكز المزدحمة بالسكان ، وكلفت السلطات البلدية بإلزام الأهالى بإرسال أبنائهم إليها ، وخول لهذه السلطات أن تحكم بغرامات مالية على المخالفين . وإذا تكررت منهم المخالفات حق للمجتمع أن يحل محل الآباء فيستولى على الطفل ويحرم الأب تلك الحقوق الطبيعية التى لم يحسن استخدامها . وليس من شك فى أن القارىء قد اطلع على تلك المقدمة التمهيدية التى استهلت بها هذه القرارات ، فالدين فى أمريكا هو الطريق إلى المعرفة والعلم ، ومراعاة القوانين الإلهية تؤدى بالإنسان إلى الحرية المدنية .

فإن نحن ، بعد أن ألقينا نظرة عجلى على حالة المجتمع الأمريكى فى سنة ١٦٥٠ ، تحولنا إلى حالة أوربا ، ولا سيما حالة « القارة » ، فى الفترة عينها ، لأخذ منا العجب كل مأخذ . فقد كانت الملكية المطلقة فى القارة الأوربية قد انتصرت فى مفتتح القرن السابع عشر فى كل مكان على بقايا الحريات الأوليجاركية والإقطاعية التى كانت تسود العصور الوسطى . وربما كانت فكرة الحق قد أغفلت تمام الإغفال أكثر مما أغفلت وسط أبهة أوربا وآدابها ، فلم يحدث قط أن قل النشاط السياسى بين الشعب ، ولم يحدث أن كانت المبادىء الحرية الصحيحة أقل تداولاً وانتشاراً . وفى هذا الوقت عينه الذى كانت فيه هذه المبادىء موضع احتقار أو جهل فى أوربا ، كانت تعلن فى صحارى الدنيا الجديدة ، وكانت تقبل بوصفها العقيدة المستقبلة لأمة عظيمة . لقد حولت جماعة متواضعة أجراً

نظريات أخرجها العقل البشرى إلى شئون عملية ، حتى لم يعد ثَمَّ سياسى واحد يفكر أن ينزل إلى الاهتمام بها . وارتجل خيال الناس ، بما له من عبقرية طبيعية ، نظاماً من نظم التشريع غير مسبوق . ففى وسط هذه الديمقراطية الغامضة التى لم تنتج بعد قواداً ولا فلاسفة ولا مؤلفين ، يستطيع الرجل أن يقف وحده تجاه أمة حرة ويعرف الحرية بالتعريف الآتى ، فيجد من السامعين رضى واستحساناً :

« أما من حيث الحرية ، فإنى أرى فى البلاد غلطة كبرى وقع فيها الناس . فهناك حرية مزدوجة : حرية طبيعية (وأقول طبيعية من حيث إن طبيعتنا نحن قد فسدت الآن) ، وحرية مدنية ، أو إن شئت ، قلت حرية فدرالية . فالحرية الطبيعية عامة يشترك فيها الإنسان والحيوان وسائر المخلوقات ، فالإنسان من حيث علاقته بأخيه الإنسان حر فى أن يفعل ما يشاء ، فهى حرية لعمل الشر ، مثلما هى لعمل الخير ، وهى حرية تتعارض مع السلطة ، ولا يمكن أن تتحمل أقل قيد تفرضه عليها أعدل سلطة ممكنة وأنزهها ، فممارسة هذه الحرية والمحافظة عليها يجعلان الإنسان شراً مما كان ، ويصبح على مر الزمن أسوأ من البهائم ومن الوحوش . فهى عدو الحقيقة اللدود ، وعدو السلام ، بل هى الوحش الكاسر الذى تقف ضده كل أوامر الله داعية إلى كبحه وتقييده . أما النوع الثانى من الحرية ، فهو الذى أسميه حرية مدنية ، أو فدرالية ، ويصح أن نسميه حرية أخلاقية كذلك من حيث الميثاق المعقود بين الله والناس ، فى القانون الأخلاق ، ومن حيث المواثيق الأخلاقية والدساتير المعقودة بين الناس أنفسهم بعضهم وبعض . فهذه الحرية هى غرض السلطة الحقيقى وهدفها الأول ، ولا يتسنى لها أن تبقى بدونها ، وهى حرية لما هو صالح وخير وعدل وشريف ليس إلّا . هذه هى الحرية التى يصح لكم أن تناصروها وتخاطروا فى سبيلها ، لا بما تملكون من أموال فحسب ، بل بحياتكم أيضاً إن اقتضت الحال . وكل ما يتعدى على هذه الحرية ، ليس بسلطة ، فهذه الحرية لا تمارس ولا تصان إلا بنوع من الإذعان للسلطة . وهو نوع الحرية ذاته الذى جعلنا الله به أحراراً[1] » .

ذكرنا ما فيه الكفاية الآن لإبراز سمة الحضارة الأمريكية ووضعها فى ضوئها الصحيح ، فهى ثمرة عنصر من أساسين متمايزين (وهذا ما يجب أن يكون نصب أعيننا باستمرار) كثيراً ما كانا فى البلاد الأخرى فى خلاف وصراع ، ولكن الأمريكيين نجحوا فى إدماج أحدهما فى الآخر إلى حد ما إدماجاً رائعاً ، وهذان العنصران هما روح الدين وروح الحرية .

كان مستعمرو نيو إنجلند رجالاً طائفيين متحمسين ومجددين جريئين معاً . فهم من حيث بعض آرائهم الدينية ضيقو الأفق كل الضيق ، ولكنهم كانوا من حيث أنواع

---

(١) يعزى هذا التعريف الطويل إلى جون وينتروب (١٥٨٨ - ١٦٤٩) ، وهو إنجليزى من القائلين بمذهب المتطهرين ، هاجر إلى أمريكا سنة ١٦٣٠ وأصبح أول حاكم لولاية ماساتشوستس .

التعصب السياسية متحررين كل التحرر ، ومن ثم نشأت فيهم نزعتان متمايزتان وليستا متناقضتين ، فآثارهما مشاهدة فى كل مكان من عادات البلاد وفى قوانينها .

كان الناس يضحون بأصدقائهم ، وبأسرهم ، وأوطانهم فى سبيل رأى من آرائهم الدينية ، ولا ضير من أن نعدهم مخلصين لأهدافهم العقلية ، ومنهمكين فى شئون تحقيقها ، وهى أهداف دفعوا فى سبيل العمل بها ثمناً غالياً . ومع ذلك فهم يسعون وراء الحصول على الثروة والمادة والإشباع المعنوى بنفس الجد وبنفس الحماسة . فهم يسعون لمرضاة الله لآخرتهم ويجرون وراء السعادة والحرية لدنياهم .

وكانت المبادىء السياسية والقوانين ، وسائر النظم البشرية تبدو فى أيديهم مرنة لينة يشكلونها على النحو الذى يشاءون ، وكلما تقدموا تضاءلت الحواجز التى كانوا قد ولدوا تحتها ، وزال جزء منها ، واختفت الآراء القديمة التى ظل العالم محكوماً بها عدة قرون ، وتكشف لهم ميدان واسع سعة لاحد لها ، واندفعت الروح البشرية قدماً حتى اجتازت تلك الحواجز من كل جانب ، ولكنها توقفت عندما بلغت حدود العالم السياسى ، وتركت الحاجة إلى البحث والتنقيب خوفاً ورهباً ، بل إنها كفت حتى عن رفع الأغشية التى أخفت كل ما هو مقدس ، وانحنت فى احترام أمام آراء قبلتها من غير تمحيص أو نقاش .

وهكذا نرى كل شىء فى العالم الأدبىّ أو الأخلاق ، مصنفاً ، منسقاً ، ومقرراً من قبل ، على حين أن كل شىء فى العالم السياسى مضطرب وموضع نزاع ، وغير يقينى . ففى الدين طاعة سلبية ، وإن كانت اختيارية . أما الثانى ففيه استقلال يهزأ بالخبرة ويزدريها ، ويغار من كل سلطة . فيبدو أن هاتين النزعتين المتعارضتين فى ظاهرهما أبعد من أن تكونا متضاربتين ، بل إنهما تسيران معاً وتؤيد كل منهما الأخرى .

فالدين يرى فى الحرية المدنية تمريناً كريماً لملكات الإنسان وقدراته ، ويرى فى العالم السياسى مجالاً أعده البارىء لجهود العقل . ولما كان الدين حراً وقوياً فى دائرته الخاصة ، راضياً عن المكانة التى أعدت له ، فإنه لم ينشىء إمبراطورية وطيدة الأسس إلا عندما يسيطر على قلوب الناس من غير حاجة به إلى أن يستند إلى شىء سوى قوته الذاتية .

وتعتبر الحرية الدين زميلاً لها فى كل ما تقوم به من كفاح وما تحرزه من انتصار ، كما تعتبره مهد طفولتها والمصدر الإلهى لمطالبها وحقوقها ، فهى تعد الدين ضمان العادات الأخلاقية . والأخلاق ، كما لايخفى ، خير ضمان للقانون وأوكد ما يكفل للحرية البقاء والدوام .

أسباب ما فى قوانين الأمريكيين الإنجليز وعاداتهم من بعض الأمور الشاذة

لاتزال بقايا النظم الأرستقراطية قائمة وسط أكمل ديمقراطية عرفت - أسباب ذلك - يجب التفريق الدقيق بين ما أصله متطهر (بيوريتانى) وما أصله إنجليزى .

من الخير أن أحذر القارىء من أن يستنبط مما سبق أن ما ذكرناه نتائج عامة أو مطلقة أكثر مما ينبغى . فما من شك فى أن حالة المهاجرين الأول الاجتماعية ودياناتهم وعاداتهم ، كان لها تأثير عظيم فى مصائر بلادهم الجديدة . ومع ذلك فلم يكن فى وسعهم أن ينشئوا حالة جديدة لاأصل لها إلا فى أنفسهم وحدها ، فليس فى مقدور أحد أن يتخلص تماماً من سلطان الماضى . وقد خلط المستعمرون عمداً ، أو من غير قصد ، أفكارا مستمدة من تربيتهم ومن تقاليدهم فى بلادهم الأصلية بالعادات والأفكار التى خلقوها هم خلقاً . فإن شئنا أن نعرف الأمريكيين الذين فى وقتنا الحاضر يجب علينا أن نميز التميز الدقيق بين ما يرجع أصله إلى المتطهرين وبين ما هو إنجليزى الأصل .

فكثيراً مايصادف المرء فى الولايات المتحدة قوانين وعادات تتعارض مع كل مايحيط بالبلاد . كأن هذه القوانين قد وضعت بروح لاتتفق مع روح التشريع الأمريكى السائدة . وليست هذه العادات بأقل تعارضا مع الأحوال الاجتماعية العامة . فلو أن المستعمرات الإنجليزية تأسست فى عصر من عصور الظلام . وكانت أصولها قد ضاعت على مر الزمان لكانت المسألة معضلة لاتحل .

وحسبى أن أقتبس مثلاً واحداً أوضح به ما قصدت ، فالإجراءات المدنية والجنائية التى يجرى عليها الأمريكيون لاتعرف سوى وسيلتين اثنتين : السجن أو الكفالة . فأول ما يعمله القاضى أن يطلب من المتهم دفع كفالة ، وإلا أمر باعتقاله إذا ما رفض الدفع ، ثم بعد ذلك يناقش أسباب اتهامه ، ومدى فداحة التهم الموجهة إليه .

ولا يخفى أن مثل هذا التشريع ليس فى صالح الفقير فى شىء ، بل كله فى صالح الغنى ، فالفقير لايجد دائماً الكفالة المطلوبة منه حتى فى القضايا المدنية ، وإن اضطر إلى البقاء فى السجن انتظاراً للعدالة ، فسرعان ما يستولى عليه الشقاء ويأخذ منه الانقباض كل مأخذ . أما الثرى فعلى النقيض من ذلك ، لأنه يستطيع أن يتخلص دائماً من السجن فى القضايا المدنية ، بل الأمر أكثر من ذلك ، فإن ارتكب جريمة ماسهل عليه أن يتفادى العقاب الذى يناله ، فما عليه إلا أن يختفى بعد أن يقدم الكفالة المطلوبة ، وبذلك يصح لنا أن نقول أن إجراءات القانون تتحول بالنسبة إليه إلى غرامات . فأى شىء أكثر أرستقراطية ياترى من هذا النظام التشريعى ؟ ومع ذلك فالفقراء فى أمريكا هم الذين

يضعون القوانين ويحتفظون عادة بأهم ميزات المجتمع لأنفسهم . وتفسير هذه الظاهرة فى إنجلترا . فالقوانين التى أتحدث عنها قوانين إنجليزية احتفظ بها الأمريكيون رغم تنافرها مع اتجاه تشريعهم العام ، ومع جملة آرائهم .

والشيء الذى لاتميل الأمة كثيرا إلى تغييره بعد عاداتها ، هو قوانينها المدنية . فليست هذه القوانين معهودة إلا للمحامين . وهم يحرصون كل الحرص على أن تبقى على ما هى عليه ، سيئة كانت أو صالحة . فهم وحدهم الذين يعرفونها . أما الشطر الأعظم من أفراد الأمة فيكادون يجهلونها . ولا هم يرون أثرها إلا فى القضايا الخاصة بهم . فلا غرو أن شق عليهم أن يدركوا اتجاهاتها ومراميها ، لأنهم يطيعون القوانين من غير أن يولوها أى تفكير .

لقد اقتبسنا هنا مثلا واحدا ، ومن الميسور أن نذكر كثيرا غيره . فعلى سطح صورة المجتمع الأمريكى غشاء من الديمقراطية يشف فى بعض الأحيان عما تحته من ألوان الأرستقراطية .